ما يوحى إليك﴾[1]، والبلدة: مكة حرسها الله تعالى اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها: لأنها أحبّ بلاده إليه وأكرمها عليه وأعظمها عنده وهكذا قال النبي ﷺ حين خرج في مهاجره فلما بلغ الحزورة استقبلها بوجهه الكريم فقال: إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت[2] وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيّه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ووصفها بأنها محرّمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها واللاجئ إليها آمن، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيّته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما وفي ذلك إشارة إلى أن ملكًا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء[3]. اللهم بارك لنا في سكناها وآمنا فيها شر كل ذي شر، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك وقرئ: التي حرّمها واتل عليهم هذا القرآن عن أبيّ وأن أتل عن ابن مسعود ﴿فمن اهتدى﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الأنداد عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل عليّ من الوحي فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿ومن ضلّ﴾ ولم يتبعني فلا عليّ وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله وذلك حين لا تنفعهم المعرفة يعني: في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: الدخان وانشقاق القمر وما حلّ بهم من نقمات الله في الدنيا، وقيل: هو كقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾[4] الآية. وكل عمل يعملونه فالله عالم به غير غافل عنه؛ لأنّ الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات[5]، وهو من وراء جزاء العاملين قرئ: ﴿تعملون﴾ بالتاء والياء. عن رسول الله ﷺ: من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القصص مكية

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾.

﴿من نبا موسى وفرعون﴾ مفعول ﴿نتلو﴾ أي: نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بالحق﴾ محقين كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾[7] ﴿لقوم يؤمنون﴾ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن؛ لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾.

﴿إنّ فرعون﴾ جملة مستانفة كالتفسير للمجمل كأن قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما، فقال: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾ يعني: أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ في الظلم والعسف ﴿شيعًا﴾ فرقًا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه قال الأعشى:

وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

أو يشيع بعضهم بعضًا في طاعته أو أصنافًا في استخدامه يتسخر صنفًا في بناء وصنفًا في حرث وصنفًا في حفر ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقًا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة وهم بنو إسرائيل والقبط، والطائفة المستضعفة بنو إسرائيل، وسبب ذبح الأبناء: أنّ كاهنًا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل بيّن على ثخانة حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل ﴿ويستضعف﴾ حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستانف و﴿يذبح﴾ بدل من يستضعف، وقوله: ﴿إنه كان من المفسدين﴾ بيان أنّ

---

(1) سورة يونس، الآية: 109.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: فضل مكة، (الحديث: 3708)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة، (الحديث: 3925)، وابن ماجه في المناسك باب: فضل مكة، الحديث: 3108. وأحمد في المسند 4/305. والحاكم في المستدرك 3/431.

(3) قال أحمد: وتحت قوله: وله كل شيء، فائدة أخرى سوى ذلك وهي: أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها اتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة، والله أعلم.

(4) سورة فصلت، الآية: 53.

(5) قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه الله تعالى؛ لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا بعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى؛ لأنّ علمه لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عامّ التعلق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(6) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي في التفسير، زيلعي 2/23.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب؛ لأنه فعل لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب.

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله:

﴿ونريد أن نمن﴾ وعطفه على **﴿نتلو﴾** ويستضعف غير سديد! **قُلْتُ:** هي جملة معطوفة على قوله: **﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾** لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرًا لنبأ موسى وفرعون واقتصاصًا له ونريد حكاية حال ماضية، ويجوز أن يكون حالاً من يستضعف أي: يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم.

فإن قُلْتَ: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم وإذا أراد الله شيئًا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر؟ **قُلْتُ:** لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم **﴿أئمة﴾** مقدمين في الدين والدنيا يطأ الناس أعقابهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قادة يقتدي بهم في الخير وعن مجاهد رضي الله عنه: دعاة إلى الخير، وعن قتادة رضي الله عنه ولاة كقوله تعالى: **﴿وجعلكم ملوكًا﴾** **﴿الوارثين﴾** يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾.

مكّن له: إذا جعل له مكانًا يقعد عليه أو يرقد فوطاه ومهده ونظيره أرّض له ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم، ولا تغث عليهم كما كانت في أيام الجبابرة وينفذ أمرهم ويطلق أيديهم ويسلطهم، وقرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما أي: يرون **﴿منهم ما﴾** حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾.

اليم: البحر قيل: هو نيل مصر.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر! **قُلْتُ:** أما الأوّل: فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه وأما الثاني: فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين الخوف والحزن؟ **قُلْتُ:** الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما جميعًا وأومنت بالوحي إليها ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسرورًا وهو رده إليها وجعله من المرسلين، وروي أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد وروي أنها حين أقربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالي بني إسرائيل مصافية لها فقالت لها: لينفعني حبك اليوم فعالجتها، فلما وقع إلى الارض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها ثم قالت: ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ولكني وجدت لابنك حبًا ما وجدت مثله فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة، ووضعته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئًا فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا فلما ألحّ فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردى مطلي بالقار من داخله.

فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾.

اللام في **﴿ليكون﴾** هي لام كي التي معناها التعليل كقولك: جئتك لتكرمني سواء بسواء، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوًا وحزنًا، ولكن المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك ضربته ليتأدب، وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد، وقرئ: **﴿وحزنًا﴾** وهما لغتان كالعدم والعدم **﴿كانوا خاطئين﴾** في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم، أو كانوا مذنبين مجرمين فعاقبهم الله بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ: **﴿خاطين﴾** تخفيف **﴿خاطئين﴾** أو **﴿خاطين﴾** الصواب إلى الخطأ، روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورًا، فعالجته ففتحته فإذا بصبي نوره بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنًا فأحبوه وكانت فرعون بنت برصاء وقالت له الأطباء: لا تبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت، وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت: إن هذه لنسمة مباركة فهذا أحد ما عطفهم عليه فقال: الغواة من قومه: هو الصبي الذي تحذر منه. فأذن لنا في قتله، فهم بذلك فقالت آسية:

﴿قرة عين لي ولك﴾ فقال فرعون: لك لا لي وروي في حديث: لو قال: هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله

كما هـاها[1]، وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت، هذا إن صح الحديث تأويله والله أعلم بصحته وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل قرة عين خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و ﴿لا تقتلوه﴾ خبرًا ولو نصب لكان أقوى، وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه دليل على أنه خبر قرأ: لا تقتلوه قرة عين لي ولك بتقديم لا تقتلوه ﴿عسى أن ينفعنا﴾، فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله ونلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء ولعلها توسمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفاعًا، أو نتبنّاه فإنه أهل للتبني ولأن يكون ولدًا لبعض الملوك.

فإن قُلْتَ: ﴿وهم لا يشعرون﴾ حال فما نو حالها! **قُلْتُ:** نو حالها آل فرعون وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنّيه، وقوله: إن فرعون الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾.

﴿فارغًا﴾ صفرًا من العقل، والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى: ﴿وأفئدتهم هواء﴾[2] أي: جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان: ألا أبلغ أبا سفيان عني، فأنت مجوف نخب هواء وذلك أنّ القلوب مراكز العقول ألا ترى إلى قوله: ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾[3] ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغا، وقرئ: قرعًا أي: خاليًا من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء، وفرغا من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ أي: هدر يعني: بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها **﴿لتبدي به﴾** لتصحر به، والضمير لموسى والمراد: بأمره وقصته وأنه ولدها **﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾** بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن **﴿لتكون من المؤمنين﴾** من المصدقين بوعد الله وهو قوله: إنا رادوه إليك، ويجوز وأصبح فؤادها فارغًا من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحًا وسرورًا بما سمعت لولا أنا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدّة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه، وقرئ: مؤسى بالهمز جعلت الضمة في جارة الواو وهي الميم كأنها فيها فهمزت كما تهمز واو وجوه.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾.

﴿قصيه﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره وقرئ: فبصرت بالكسر يقال: بصرت به عن جنب وعن جنابة بمعنى: عن بعد، وقرئ: عن جانب وعن جنب والجنب الجانب يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه أي: نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة، وهم لا يحسون بأنها أخته وكان اسمها: مريم.

❁ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾.

و**﴿المراضع﴾** جمع مرضع وهي: المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو: موضع الرضاع يعني: الثدي أو الرضاع **﴿من قبل﴾** من قبل قصصها أثره، روي أنها لما قالت: **﴿وهم له ناصحون﴾** قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون والنصح إخلاص العمل[4] من شائب الفساد فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبيّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبي كل ثدي إلا ثديك قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الردّ فعندها ثبت واستقرّ في علمها أن سيكون نبيًا وذلك قوله: **﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾** يريد: وليثبت علمها ويتمكن.

فإن قُلْتَ: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها! **فإن قُلْتَ:** ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على وجه الاستباحة وقوله: **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** داخل تحت علمها المعنى لتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت وأصبح فؤادها فارغًا يروى أنها حين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها: يا أمّ موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري ثم ذهبت فتوليت قتله، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت: وقع في يد العدوّ، فنسيت وعد الله ويجوز أن يتعلق **﴿ولكن﴾** بقوله: **﴿ولتعلم﴾** ومعناه: أن الردّ إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو علمها بصدق وعد الله ولكن الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له من قرّة العين

(1) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، زيلعي 3/27.

(2) سورة الحج، الآية: 46.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 43.

(4) قال أحمد: أورت هذه التورية استحساناً لفطنتها، ولكونها من بيت النبوءة وأخت النبيّ، فحقيق لها ذلك.

وذهاب الحزن.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾.

﴿واستوى﴾، واعتدل وتمّ استحكامه وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه كما قال لقيط:

واستحملوا أمركم لله درّكمو شزر المريرة لا قحمًا ولا ضرعًا

وذلك أربعون سنة ويروى أنه لم يبعث نبيّ إلا على رأس أربعين سنة[1]، العلم: التوراة والحكم: السنة وحكمة الأنبياء سنتهم قال الله تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة﴾[2] وقيل معناه: آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلاً يستجهل فيه.

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾.

المدينة: مصر وقيل: مدينة منف من أرض مصر، وحين غفلتهم ما بين العشاءين وقيل: وقت القائلة وقيل: يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم وقيل: لما شبّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية إلا على تغفل، وقرأ سيبويه: فاستعانه ﴿من شيعته﴾ ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل وقيل: هو السامريّ ﴿من عدوّه﴾ من مخالفيه من القبط، وهو: فاتون وكان يتسخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون، والوكز: الدفع بأطراف الأصابع وقيل: بجمع الكف وقرأ ابن مسعود: فلكزه باللام ﴿فقضى عليه﴾ فقتله.

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾.

فإن قُلْتَ: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلمًا لنفسه واستغفر منه.

قُلْتُ: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل فكان ذنبًا يستغفر منه وعن ابن جريج: ليس لنبيّ أن يقتل مالم يؤمر.

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾.

﴿بما أنعمت عليّ﴾ يجوز أن يكون قسمًا جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبن ﴿فلن أكون ظهيرًا للمجرمين﴾ وأن يكون استعطافًا كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيرًا للمجرمين وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له، وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرّة أخرى يعني: لم يقل فلن أكون إن شاء الله وهذا نحو قوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾[3] وعن عطاء: أنّ رجلاً قال له: إنّ أخي يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه قال: فمن الرأس يعني: من يكتب له قال: خالد بن عبد الله القسري قال: فأين قول موسى: وتلا هذه الآية وفي الحديث ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة، أو برى لهم قلمًا فيجمعون في تابوت من حديد فيرمي به في جهنم وقيل[4]: معناه بما أنعمت عليّ من القوّة لن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك ولا أدع قبطيًا يغلب أحدًا من بني إسرائيل.

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾.

﴿يترقب﴾ المكروه، وهو: الاستقادة منه أو الإخبار وما يقال فيه، ووصف الإسرائيلي بالغيّ؛ لأنه كان سبب قتل رجل وهو يقاتل آخر.

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾.

وقرئ: ﴿يبطش﴾ بالضم، والذي هو عدوّ لهما القبطي؛ لأنه ليس على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل، والجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ولما قال هذا أفشى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون وهمّوا بقتله.

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾.

قيل: الرجل مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون و﴿يسعى﴾ يجوز ارتفاعه وصفًا لرجل وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله: ﴿من أقصى المدينة﴾ وإذا جعل صلة لجاء لم يجز في يسعى إلى الوصف، والائتمار: التشاور يقال: الرجلان يتآمران

---

(1) قال الزيلعي غريب، 3/27.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 34.

(3) سورة هود، الآية: 113.

(4) قال أحمد: لقد تبرأ من عظيم؛ لأنّ ظهير المجرمين شريكهم فيما = هم بصدده، ويروى أنه يقال يوم القيامة: أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو برى لهم قلماً، فيجعلون في تابوت من حديد، ويلقى بهم في النار.

ويأتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى: يتشاورون بسببك ﴿لك﴾ بيان وليس بصلة الناصحين.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يترقب﴾ التعرض له في الطريق أو أن يلحق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تلقاء مدين﴾ قصدها ونحوها، ومدين: قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه و﴿سواء السبيل﴾ وسطه ومعظم نهجه وقيل: خرج حافيًا لا يعيش إلا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدمه وقيل: جاءه ملك على فرس بيده عنزا فانطلق به إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ماء مدين﴾ ماءهم الذي يستقون منه وكان بئرًا فيما روي، ووروده: مجيئه والوصول إليه ﴿وجد عليه﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿أمّة﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿من الناس﴾ من أناس مختلفين ﴿من دونهم﴾ في مكان أسفل من مكانهم، والذود: الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي وقيل كانتا تكرهان المزاحمة على الماء وقيل: لئلا تختلط أغنامهما وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ﴿ما خطبكما﴾ ما شانكما وحقيقته ما مخطوبكما أي: مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبًا كما سمى المشئن شأنًا في قولك ما شأنك يقال: شأنت شأنه أي: قصدت قصده، وقرئ ﴿لا نسقي﴾ و﴿يصدر﴾ و﴿الرعاء﴾ بضم النون والياء والراء والرعاء: اسم جمع كالرخال والثناء، وأما الرعاء بالكسر فقياس كصيام وقيام ﴿كبير﴾ كبير السن.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فسقى لهما﴾ فسقى غنمهما لأجلهما، وروي أن الرعاة كان يضعون على رأس البئر حجرًا لا يقله إلا سبعة رجال وقيل: عشرة وقيل: أربعون، وقيل: مائة فأقله وحده وروي أنه سألهم دلوًا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا: استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة وروّى غنمهما وأصدرهما وروي أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما وقيل: كانت بئرًا أخرى عليها الصخرة، وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب، وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره، وما أوتي من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ترغيب في الخير، وانتهاز فرصة وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم.

فإن قُلْتَ: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله: ﴿يسقون﴾ و﴿تذودان﴾، ولا نسقي! قُلْتُ: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذيادوهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً وكذلك قولهما: ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ المقصود فيه: السقي لاالمسقي.

فإن قُلْتَ: كيف طابق جوابهما سؤاله؟ قُلْتُ: سألهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به أبلتا إليه عذرهما في توليهما السقي بأنفسهما.

فإن قُلْتَ: كيف ساغ لنبيّ الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قُلْتُ: الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصًا إذا كانت الحالة حالة ضرورة ﴿إني﴾ لأي شيء ﴿أنزلت إليّ﴾ قليل أو كثير غث أو سمين لـ ﴿فقير﴾ وإنما عدى فقير باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب قيل: ذكر ذلك، وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال ما سأل الله إلا أكلة ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين: لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة قال: ذلك رضا بالبدل السنى وفرحًا به، وشكرًا له وكان الظل ظل سمرة.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿على استحياء﴾ في موضع الحال أي: مستحيية متخفرة وقيل: قد استترت بكم درعها، روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حقل بطان قال لهما: ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحًا رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي فتبعها موسى فألزقت

الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق فلما قص عليه قصته قال له: لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا.

فإن قُلْتَ: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية؟ **قُلْتُ:** أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرًّا كان أو عبدًا، ذكرًا كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع.

فإن قُلْتَ: كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف وقبل إطعام شعيب وإحسانه، لا على سبيل أخذ الأجر ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوّة من أولاد يعقوب ومثله حقيق بأن يضيف، ويكرم خصوصًا في دار نبي من أنبياء الله وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلبًا للأجر، وقد روي ما يعضد كلا القولين، روي أنها لما قالت: ﴿**ليجزيك**﴾ كره ذلك ولما قدّم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبًا ولا نأخذ على المعروف ثمنًا حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، وعن عطاء ابن السائب: رفع صوته بدعائه ليسمعهما فلذلك قيل له: ﴿**ليجزيك أجر ما سقيت**﴾ أي: جزاء سقيك، ﴿**والقصص**﴾ مصدر كالعلل سمى به المقصوص.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾.

كبراهما كانت تسمى: صفراء والصغرى: صفيراء وصفراء هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوّجها، وعن ابن عباس أن شعيبًا أحفظته الغيرة فقال: وما علمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو وأنه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه وقولها: ﴿**إن خير من استأجرت القوي الأمين**﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوّته وأمانته[1].

فإن قُلْتَ: كيف جعل خير من استأجرت اسمًا؛ لأنّ والقوى الأمين خبرًا؟ **قُلْتُ:** هو مثل قوله: ألا إن خير الناس حيًا وهالكًا، أسير ثقيف عندهم في السلاسل في أن العناية هي سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبرًا اسمًا وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف ومنه قولهم: أهون ما أعملت لسان ممخ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله: عسى أن ينفعنا وأبو بكر في عمر.

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾.

روي أنه أنكحه صفراء وقوله: ﴿**هاتين**﴾ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما ﴿**تاجرني**﴾ من أجرته إذا كنت له أجيرًا كقولك: أبوته إذا كنت له أبًا و ﴿**ثماني حجج**﴾ ظرفه، أو من أجرته كذا إذا أثبته إياه ومنه تعزية رسول الله ﷺ: «أجركم الله ورحمكم»[2] وثماني حجج مفعول به ومعناه: رعية ثماني حجج.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ **قُلْتُ:** لم يكن ذلك عقدًا للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ولو كان عقدًا لقال قد أنكحتك ولم يقل إني أريد أن أنكحك.

فإن قُلْتَ: فكيف صح أن يمرها إجارة نفسه في رعية الغنم ولا بد من تسليم ما هو مال ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوّج امرأة بأن يخدمها سنة وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة أو يسكنها داره سنة؛ لأنه في الأوّل مسلم نفسه وليس بمال، وفي الثاني هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار؟ **قُلْتُ:** الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت وأما الشافعي، فقد جوّز التزوّج على الإجارة لبعض الأعمال الخدمة إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمرًا معلومًا[3] ولعلّ ذلك كان جائزًا في تلك الشريعة، ويجوز أن يكون المهر شيئًا آخر وإنما أراد أن يكون راعي غنمه هذه المدّة وأراد أن ينكحه ابنته فذكر له المرادين، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى إني أفعل هذا إذا فعلت

---

(1) قال أحمد: وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوّجها منه، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله تعالى عنه هذا المعنى، فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين، فكان قوياً أميناً يستعين به على ما كان بصدده رضي الله عنه، وهذا الايهام من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول، والمستعمل ليس التكحل في العينين كالكحل = حيث قالت لسيدها: ما جزاء ما أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم، وهي تعني: ما جزاء يوسف بما أرادني من السوء، إلا أن تسجنه أو تعذبه عذاباً أليماً، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوباً إليها الخنا إيذاناً، بأن هذا الحياء منها الذي يمنعها أن تنطق بهذا الأمر يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأخرى والأولى، والله أعلم.

(2) قال الزيلعي غريب، ورواه الديلمي 3/28.

(3) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 3/385، كتاب: الجنائز، باب: الرجل يعذّر. =

ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة ويجوز أن يستأجره لرعية ثماني سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ثم ينكحه ابنته به ويجعل قوله: على أن تأجرني ثماني حجج عبارة عما جرى بينهما **﴿فإن اتممت﴾** عمل عشر حجج **﴿فمن عندك﴾** فإتمامه من عندك ومعناه فهو من عندك لا من عندي يعني: لا ألزمكه ولا أحتمه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع وإلا فلا عليك **﴿وما أريد أن أشق عليك﴾** بإلزام أتم الأجلين وإيجابه.

فإن قُلْتَ: ما حقيقة قولهم: شققت عليه وشق عليه الأمر! **قُلْتُ:** حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول: تارة أطيقه وتارة لا أطيقه، أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعي غنمه، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين من المناقشة في مراعاة الأوقات والمداقة في استيفاء الأعمال، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ شريكي فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري[1] وقوله: **﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾** يدل على ذلك يريد بالصلاح حسن المعاملة ووطاة الخلق ولين الجانب، ويجوز أن يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه، ومعونته لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله وإن شاء استعمل خلافه.

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾.

﴿ذلك﴾ مبتدأ و**﴿بيني وبينك﴾** خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعًا لا نخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت عليّ ولا أنت عما شرطت على نفسك، ثم قال: أي أجل من الأجلين قضيت أطولهما الذي هو العشر، أو أقصرهما الذي هو الثمان **﴿فلا عدوان علي﴾** أي: لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة عليه.

فإن قُلْتَ: تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعًا! **قُلْتُ:** معناه كما أني إن طولبت بالزياد على العشر كان عدوانًا لا شك فيه فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء وأما التتمة فموكولة إلى رأيي إن شئت أتيت بها وإلا لم أجبر عليها، وقيل: معناه فلا أكون متعديًا وهو في نفي العدوان عن نفسه كقولك: لا إثم عليّ ولا تبعة عليّ، وفي قراءة ابن مسعود أي الأجلين ما قضيت وقرئ أيما بسكون الياء كقوله:

تنظرت نصرًا والسماكين أيهما ... على من الغيث استهلت مواطره

وعن ابن قطيب عدوان بالكسر.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين موقعي ما المزيدة في القراءتين؟ **قُلْتُ:** وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام أي: زائدة في شياعها وفي الشاذة تأكيدًا للقضاء كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له، الوكيل الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيمن، والمقيت عدي بعلي لذلك روي: أنّ شعيبًا كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى: بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها، وكان مكفوفًا فضنّ بها فقال: غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلم أنّ له شأنًا وقيل: أخذها جبريل بعد موت آدم، فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً وقيل: أودعها شعيبًا ملك في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فردّها سبع مرّات فلم يقع في يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم؛ لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أوّل طالع فأتاهما الملك فقال: ألقياها فمن رفعها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضًا وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج، ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإنّ الكلأ، وإن كان بها أكثر إلا أنّ فيها تنينًا أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى، ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأنًا وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدرع ودرعاء، فأوحى إليه في المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فوفى له بشرطه سئل رسول الله ﷺ أي الأجلين قضى موسى فقال: **﴿أبعدهما وأبطاهما﴾**[2]

---

(1) قال أحمد: ومذهب مالك عل ثلاثة أقوال: المنع والكراهة والجواز، والعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج مع أنّ الآية أجازت النكاح على منافع الزوج، ولم تتعرّض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه = الزمخشري، أو تفريعاً على أن لا دليل في شرع من قبلنا أو غير ذلك والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في كراهية المراء (الحديث: 4836) وابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: الشركة والمضاربة=

وروى أنه قال: قضى أوفاهما وتزوّج صغراهما[1] وهذا خلاف الرواية التي سبقت.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾.

الجذوة باللغات الثلاث، وقرئ بهنّ جميعًا العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن قال كثير:

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا ذعر

وقال:

ألقى على قبس من النار جذوة شديدًا عليه حرّها والتهابها

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾.

من الأولى والثانية لابتداء الغاية أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة، و﴿من الشجرة﴾ بدل من قوله: من شاطئ الوادي بدل الاشتمال؛ لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله تعالى: ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم﴾[2] وقرئ البقعة بالضم والفتح والرهب بفتحتين وضمتين وفتح وسكون وضم وسكون وهو الخوف.

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: واضمم إليك جناحك من الرهب **قُلْتُ:** فيه معنيان أحدهما: أنّ موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية فزع، واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له: إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمر أنّ اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح: اليد لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضمّ جناحه إليه، والثاني أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدّده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه، وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتبًا له كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي، ومعنى قوله: من الرهب من أجل الرهب أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك جعل الرهب الذي كان يصيبه سببًا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه، ومعنى واضمم إليك جناحك وقوله أسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرّر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرهب.

فإن قُلْتَ: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضمومًا وفي الآخر مضمومًا إليه وذلك قوله: واضمم إليك جناحك وقوله: واضمم يدك إلى جناحك فما التوفيق بينهما! **قُلْتُ:** المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى وكلّ واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ومن بدع التفاسير أنّ الرهب الكم بلغة حمير، وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زر مانقة من صوف لا كمى لها ﴿فذانك﴾، قرئ مخففًا ومشدّدًا فالمخفف مثنى ذاك والمشدّد مثنى ذلك ﴿برهانان﴾ حجتان بينتان نيرتان.

فإن قُلْتَ: لم سميت الحجة برهانًا! **قُلْتُ:** لبياضها وإنارتها من قولهم: للمرأة البيضاء برهرهة بتكرير العين واللام معًا، والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل إذا جاء بالبرهان ونظيره تسميتهم إياها سلطانًا من السليط، وهو الزيت لإنارتها.

﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾.

يقال: ردأته أعنته والردء اسم ما يعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به قال سلامة بن جندل:

وردئي كل أبيض مشرفي شحيذ الحدّ عضب ذي فلول

وقرئ ردًا على التخفيف كما قرئ ﴿ردا يصدقني﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب نحو وليًا يرثني سواء.

فإن قُلْتَ: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ **قُلْتُ:** ليس

= (الحديث: 2287).

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/407. وفي كشف الأستار، كتاب: التفسير باب: سورة القصص (الحديث: 2244).

(2) سورة الزخرف، الآية: 33.

الغيض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول: للناس صدق موسى وإنما هو يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه: ويجادل به الكفار كما يفعل الرجل المنطيق نو الغارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد كما يصدّق القول بالبرهان ألا نرى إلى قوله: ﴿واخي هارون هو افصح مني لسانًا فارسله معي﴾، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك لا لقوله: صدقت فإنّ سحبان وباقلا يستويان فيه أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدّقه الذي يخاف تكذيبه فأسند التصديق إلى هارون، لأنه السبب فيه إسنادًا مجازيًا ومعنى الإسناد المجازي أن التصديق حقيقة في المصدق، فإسناده حقيقة وليس في السبب تصديق ولكن استعير له الإسناد؛ لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة والدليل على هذا الوجه قوله: ﴿إني اخاف ان يكذبون﴾ وقراءة من قرأ: ﴿ردا يصدقوني﴾ وفيها تقوية للقراءة بجزم ﴿يصدقني﴾.

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾.

العضد قوام اليد وبشدّتها تشتد قال طرفه:

ابني لبيني لستم بيد إلا يداً ليست لها عضد

ويقال: في دعاء الخير شدّ الله عضدك وفي ضدّه فت الله في عضدك، ومعنى ﴿سنشدّ عضدك بأخيك﴾ سنقوّيك به ونعينك فإمّا أن يكون ذلك، لأنّ اليد تشتد بشدّة العضد والجملة تقوى بشدّة اليد على مزاولة الأمور، وإمّا لأنّ الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشدّدة بعضد شديد ﴿سلطانًا﴾ غلبة وتسلطًا، أو حجة واضحة ﴿بآياتنا﴾ متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات أي: اذهبا بآياتنا أو بنجعل لكما سلطانًا أي: نسلطكما بآياتنا، أو بلا يصلون أي: تمتنعون منهم بآياتنا أو هو بيان للغالبون لا صلة لامتناع تقدّم الصلة على الموصول ولو تأخر لم يكن إلا صلة له، ويجوز أن يكون قسما جوابه لا يصلون مقدّمًا عليه أو من لغو القسم.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿سحر مفترى﴾ سحر تعمله أنت، ثم تفتريه على الله أو سحر ظاهر افتراؤه أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿في آبائنا﴾ حال منصوبة عن هذا أي: كائنًا في زمانهم وأيامهم يريد ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلوا من أن يكونوا كانبين في ذلك وقد سمعوا وعلموا بنحوه، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به وهذا دليل على أنهم حجّوا وبهتوا وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم: هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها يقول:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿ربي اعلم﴾ منكم بحال من أهّله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيًا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى ويعني: نفسه، ولو كان كما تزعمون كاذبًا ساحرًا مفتريًا لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبئ السحرين، ولا يفلح عنده الظالمون و ﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾[1] وقوله: وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا، وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت.

فإن قُلْتَ: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لأنّ الدنيا إمّا أن تكون خاتمتها بخير أو بشر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ **قُلْتُ:** قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازًا إلى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير، وما خلقهم إلاّ لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف فإذًا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير وأما عاقبة السوء، فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار[2] وقرأ ابن كثير قال موسى: بغير واو

---

(1) سورة الرعد، الآية: 22.

(2) قال أحمد: وقد تقدّم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام والقدر الذي يحتاج إلى تجديده ههنا أن استدلاله على أنّ عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها، بقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾ معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة على عقائدهم، مثل قوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ الآية والمراد والله أعلم. ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقاً كثيراً من الثقلين، ومن ذلك مايروى عن الفاروق رضي الله عنه، أنه قال: وإنكم آل المغيرة ذرأ النار أي: خلقها، فلئن دلت آية الذاريات ظاهراً على أنّ الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثواباً على عبادتهم له، فقد دلت آية الاعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين، لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم، وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين، وحمل عموم= آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى، وإنّ المراد ما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتي جمعاً بين الأدلة، فقد ثبت أنّ العاقبتين كلتيهما مرادة لله تعالى، هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيراً، وإرادة الخير بها أنّ الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم، وركب فيهم عقولاً ترشدهم إلى عاقبة الخير، ومكّنهم منها، وأزاح عللهم، ووفر دعاويهم، فكان من حقهم أن لا يعدلوا عن عاقبة الخير، ولا يسلكوا غير طريقها، وأن يتخذوها نصب أعينهم فأطلقت العاقبة، والمراد بها الخير تفريعاً على ذلك والله أعلم. والحاصل أنها لما كانت هي المأمور بها، والمحضوض عليها عوملت معاملة ما هو مراد، وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق، وقال لي بعضهم: ما يمنعك أن تقول لم يفهم=

على ما في مصاحف أهل مكة وهي قراءة حسنة؛ لأنّ الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة سحرًا مفترى ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى عليه السلام: هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر وبضدها تتبين الأشياء.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾.

وقرئ: ﴿تكون﴾ بالتاء والياء روى: أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه يبني فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك ويروى في هذه القصة: أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة من السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال: قد قتلت إله موسى فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه والله أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجود معناه ما لكم من إله غيري كما قال الله تعالى: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ معناه: بما ليس فيهن وذلك؛ لأنّ العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه فإذا كان الشيء معدومًا لم يتعلق به موجود فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم[1] بوجوده ويجوز أن يكون على ظاهره وإنّ إلهاً غيره غير معلوم عنده ولكنه مظنون بدليل قوله: **﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾** وإذا ظنّ موسى عليه السلام كاذباً في إثباته إلهاً غيره ولم يعلمه كاذبًا فقد ظنّ أن في الوجود إلهاً غيره ولو لم يكن المخذول ظانًا ظنًا كاليقين بل عالمًا بصحة قول موسى عليه السلام لقوله موسى له: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر لما تكلف ذلك البنيان العظيم ولما تعب في بنائه ما تعب لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام وإن كان جاهلاً مفرط الجهل به وبصفاته حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض[2] ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يبنونه وليت شعري أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك أم كان في نفسه بتلك الصفة وإن صحّ ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم فتهكم به بالفعل كما جاء التهكم بالقول: في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين كقوله:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين

= كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها، ولكن من إضافتها إلى ذويها باللام في الآي المذكورة، كقوله: ﴿من تكون له عاقبة الدار وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والعاقبة للمتقين﴾ فافهمت اللام أنها عاقبة الخير إذ هي لهم، وعاقبة السوء عليهم لا لهم كما يقولون الدائرة لفلان يعنون: دائرة الظفر والنصر، والدائرة على فلان يعنون: دائرة الخذلان والسوء، فقلت: لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ولم يقل عليهم فاستعمال اللام مكان على دليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير والله أعلم.

(1) قال أحمد: لشدّة ما بلغ منه الوهم لم يتأمل كيف سقوط السهم، وإنما أتى من حيث أنّ الله تعالى عبر كثيراً عن نفي المعلوم بنفي العلم في مثل قوله: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض أم تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض﴾ فلما اطرد ذلك عنده توهم أنّ هذا التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ماهويه، وليس هو كذلك، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم، وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر فما لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق، فلا تلازم بين نفي الشيء، ونفي العلم الحادث بوجوده، ولا كذلك العلم القديم، فإن بين نفي معلومه ونفي تعلقه بوجوده تلازماً سوغ التعبير المذكور، ولكن المعلوم أنّ فرعون= = كان يدعي الإلٰهية، ويعامل علمه معاملة علم الله تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء، فمن ثم طغى وتكبر وعبر بنفي علمه عن نفي المعلوم تدليساً على ملئه، وتلبيساً على عقولهم السخيفة والله أعلم وينايب تعاظمه هذا قوله: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل فاطبخ لي آجراً، وذلك من التعاظم كما قال تعالى. ﴿وله العظمة والكبرياء﴾ ومن ارتدى بردائهما قصمه، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية، فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاوناً بها، وذلك من تجبر الملوك جلّ الله وعز، ومن تعاظم فرعون أيضاً نداؤه لوزيره باسمه، وبحرف النداء، وتوسيط ندائه خلال الأمر، وبناؤه الصرح، ورجاؤه الاطلاع دليل على أنه لم يكن مصمماً على الجحود. قال الزمخشري: وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ فإما أن يخفى هذا التناقض على قوله لغباوتهم وكآبة أذهانهم، وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصروا.

(2) قال أحمد: ولقائل والله أعلم أن يحمل قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ على الشكّ ونفي علمه خاصة وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفي تعلقه بوجود أمر نفي ذلك الأمر لجواز أن يكون موجوداً عازباً عن علمه، وحينئذ لا يكون تناقضاً ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوّغنا، أو يرفع التناقض عن كلامه؛ لأنه أحقر من ذلك.

وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم أو لم تخف عليهم ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه وإنما قال: ﴿فاوقد لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل اطبخ لي الآجر واتخذه لأنه أوّل من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أحسن طباقًا لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادي باسمه بباقي وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال: ما علمت أن أحدًا بني بالآجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع الصعود يقال: طلع الجبل وأطلع بمعنى.

وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾.

الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أي: المتبالغ في كبرياء الشأن قال رسول الله ﷺ: فيما حكى عن ربه الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار[1] وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿يرجعون﴾ بالضم والفتح.

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقارًا لهم واستقلالاً لعددهم وإن كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهنّ آخذ في كفه فطرحهنّ في البحر ونحو ذلك قوله: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾[2] ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾[3] ﴿وما قدّروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه﴾[4] وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره وأن كل مقدور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾.

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ **قُلْتُ:** معناه ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة، وهو من قولك: جعله بخيلاً وفاسقًا إذا دعاه[5] وقال: إنه بخيل وفاسق ويقول: أهل اللغة في تفسير فسقه، وبخله جعله بخيلاً وفاسقًا ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا﴾[6]، ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة، ويجوز خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر ومعنى الخذلان منع الألطاف وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغني عنه الآيات والنذر ومجراه مجرى الكناية لأنّ منع الألطاف يردف التصميم، والغرض بذكره التصميم نفسه فكأنه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته.

فإن قُلْتَ: فأي فائدة في ترك المردوف إلى الرادفة؟ **قُلْتُ:** ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده فيكون أقوى لإثباته من ذكره ألا ترى أنك تقول لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجوده التصميم على الكفر وزيادة وهو قيام الحجة على وجوده وينصر هذا الوجه قوله ويوم القيامة لا ينصرون كأنه قيل وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون كما قال:

وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: طردًا وإبعادًا عن الرحمة ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي: من المطرودين المبعدين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿بصائر﴾ نصب على الحال والبصيرة نور القلب الذي يستبصر به كما أن البصر نور العين الذي تبصر به يريد آتيناه التوراة أنوارًا للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر، ولا تعرف حقًا من باطل وإرشادًا لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿ورحمة﴾ لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ إرادة أن يتذكروا شبهت الإرادة بالترجي، فاستعير لها ويجوز أن يراد به ترجي موسى عليه السلام[7] لتذكرهم كقوله تعالى: ﴿لعله

---

(1) أخرجه مسلم بمعناه، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الكبر (الحديث رقم: 136 ـ 2620).

(2) سورة المرسلات، الآية: 27.

(3) سورة الحاقة، الآية: 14.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) قال أحمد: لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ وبين هذه الآية فمن = حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى، ونفي كل مخلوق نعوذ بالله من ذلك.

(6) سورة الزخرف، الآية: 19.

(7) قال أحمد: الوجه الثاني هو الصواب واحذر الأوّل فإنه قدري.

يتذكر﴾[1].

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿الغربي﴾ المكان الواقع في شق الغرب وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح، والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام الوحي الذي أوحى إليه والخطاب لرسول الله ﷺ يقول وما كنت حاضرًا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ولا كنت ﴿من﴾ جملة ﴿الشاهدين﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته وكتبه التوراة له في الألواح وغير ذلك.

فإن قُلْتَ: كيف يتصل قوله.

وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿ولكنا انشانا قرونًا﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكًا له؟ **قُلْتُ:** اتصاله به وكونه استدراكًا له من حيث أن معناه ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونًا كثيرة ﴿فتطاول﴾ على آخرهم وهو القرن الذي أنت فيهم ﴿العمر﴾ أي: أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسبناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام كأنه قال: وما كنت شاهدًا لموسى، وما جرى عليه ولكنا أوحينا إليك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودلّ به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وما كنت ثاويًا﴾ أي: مقيمًا ﴿في أهل مدين﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ تقرؤها عليهم تعلما منهم يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه، ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿إذ ناديناً﴾ يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه و ﴿لكن﴾ علمناك ﴿رحمة﴾ وقرئ رحمة بالرفع أي: هي رحمة ﴿ما أتاهم﴾ من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة ونحوه قوله: لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿ولولا﴾ الأولى امتناعية، وجوابها محذوف والثانية تحضيضية وإحدى الفاءين للعطف والأخرى جواب لولا لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي هلا أرسلت إلينا رسولاً محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعني: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة، ولا يلزموها كقوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾[2] أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك.

فإن قُلْتَ: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول: لدخول حرف الامتناع عليها دونه!**قُلْتُ:** القول هو المقصود بأن يكون سببًا لإرسال الرسل ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفًا عليها بالفاء المعطية معنى السببية[3] ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم: هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن

---

(1) سورة طه، الآية: 44.

(2) سورة النساء، الآية: 165.

(3) قال أحمد: ونلك مثل قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ والسر في جعل سبب السبب سبباً، وعطف السبب الأصلي عليه أمران أحدهما أن مزيد العناية يوجب التقديم، وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه، الثاني أن في هذا النظم تنبيهاً على سببية كل واحد منهما، أما الأوّل فلاقترانه بحرف التعليل، وهو أن، وأما الثاني فلاقترانه بفاء السبب، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك: أن تضل إحداهما، فتذكر لا من قول القائل أن تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالاً على النحاة، وعلى أهل السنة من المتكلمين، فيقول: لولا عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها، وحينئذ يكون الواقع بعدها في الآية موجوداً، وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل، وجوابها المحذوف غير واقع، وهو عدم الإرسال؛ لأنه ممتنع بالأولى ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعاً ضرورة، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة= =لأنهم يقولون: لا ظلم قبل بعثة الرسل، فلا تتصوّر العقوبة بتقدير عدم البعثة ونلك؛ لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع، فإن لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة، ويشكل الجواب على النحاة؛ لأنه يلزم أن لا يكون واقعاً وهو عدم بعثة الرسل، لكن الواقع بعدها يقتضي وقوعه، ثم كان مورد هذا الإشكال يجيب عنه بتقدير محذوف، والأصل ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذ يزول الإشكال عن الطائفتين، والتحقيق عندي في الجواب خلاف نلك، وإنما جاء الإشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها عكس لو، فإن معناها لزوم جوابها لما بعدها، ثم المانع قد يكون موجوداً، وقد يكون مفروضاً والآية من قبيل فرض وجود المانع، وكنلك اللزوم في لو قد يكون الشيء الواحد لازماً لشيئين، فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه، وعلى هذا التحرير يزول الإشكال الوارد على لو في قوله: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فتأمل هذا الفصل فتحته فوائد للمتأمل والله الموفق.

اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما الجئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، وإنما السبب في قولهم: هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم، ورسوخه فيهم ما لا يخفى كقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾. ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جعل كل عمل معبرًا عنه باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعًا للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿فلما جاءهم الحق﴾، وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم ﴿قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات فجاؤوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك ﴿أولم يكفروا﴾ يعني: أبناء جنسهم، ومن مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام ﴿بما أوتي موسى﴾ وعن الحسن رحمه الله قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آباؤهم ﴿قالوا﴾ في موسى وهارون ﴿ساحران تظاهرا﴾ أي: تعاونا، وقرئ إظهارًا على الإدغام وسحران بمعنى ذوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر أو أرادوا نوعان من السحر ﴿بكل﴾ بكل واحد منهما.

فإن قُلْتَ: بم علقت قوله: من قبل في هذا التفسير! قُلْتُ: بأن لم يكفروا ولي أن أعلقه بأوتي فينقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا: هذه المقالة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة وقالوا: في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ساحران تظاهرا، أو في الكتابين سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أنه نعته وصفته، وأنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا: عند ذلك ساحران تظاهرا.

قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿هو أهدى منهما﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل عليّ. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأنّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشكّ ويجوز أن يقصد بحرف الشكّ التهكم بهم.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية وبينه في قوله: فلم يستجبه عند ذاك مجيب، حيث عدى بغير اللام! قُلْتُ: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ويحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه وأما البيت، فمعناه فلم يستجب دعاءه على حذف المضاف.

فإن قُلْتَ: فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء ههنا! قُلْتُ: قوله: ﴿فأتوا بكتاب﴾ أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه فكأنه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلا الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ثم قال:

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾.

﴿ومن أضل ممن﴾ لا يتبع في دينه إلا ﴿هواه بغير هدى من الله﴾ أي: مطبوعًا على قلبه ممنوع الألطاف ﴿إنّ الله لا يهدي﴾ أي: لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث، وقوله بغير هدى في موضع الحال يعني: مخذولاً مخلى بينه وبين هواه.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾.

قرئ ﴿وصلنا﴾ بالتشديد والتخفيف، والمعنى: أن القرآن أتاهم متتابعًا متواصلاً وعدًا ووعيدًا وقصصًا وعبرًا ومواعظ ونصائح إرادة أن يتذكروا، فيفلحوا أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه في أثر بعض كقوله: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾[1].

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾.

نزلت في مؤمني أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة أنا أحدهم وقيل: في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من أرض الحبشة وثمانية من الشام. والضمير في من قبله للقرآن.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين الاستئنافين أنه وأنا؟ قُلْتُ: الأول تعليل للإيمان به؛ لأن كونه حقًا من الله حقيق بأن يؤمن به والثاني بيان لقوله: ﴿آمنا به﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيمانًا قريب العهد وبعيده فأخبروا أن إيمانهم به متقادم لأنّ آباءهم القدماء قرؤا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم ﴿من قبله﴾ من قبل وجوده ونزوله.

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 2.

﴿مسلمين﴾ كائنين على دين الإسلام لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحي.

أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله، وبعد نزوله أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب، ونحوه يؤتكم كفلين من رحمته ﴿بالحسنة السيئة﴾ بالطاعة المعصية المتقدمة أو بالحلم الأذى.

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿سلام عليكم﴾ توديع ومتاركة وعن الحسن رضي الله عنه كلمة حلم من المؤمنين ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم.

فإن قُلْتَ: مَن خاطبوا بقولهم ولكم أعمالكم! **قُلْتُ:** اللاغين الذين دل عليهم قوله: ﴿وإذا سمعوا اللغو﴾.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿لا تهدي من أحببت﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ﴿ولكن الله﴾ يدخل في الإسلام ﴿من يشاء﴾ وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه وأن الألطاف تنفع فيه، فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ بالقابلين من الذين لا يقبلون قال: الزجاج أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال: عند موته يا معشر بني هاشم أطيعوا محمدًا وصدقوه تفلحوا وترشدوا، فقال النبي ﷺ: يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك قال: فما تريد يا ابن أخي قال: أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله قال: يا ابن أخي قد علمت أنك لصادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدّة وجدك ونصيحتك، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾.

قالت قريش وقيل: إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك، وإنما نحن أكلة رأس أي: قليلون أن يتخطفونا من أرضنا[1] فألقمهم الله الحجر بأنه مكّن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون، ويتناحرون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذي زرع والثمرات، والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب فإذا خوّلهم الله ما خوّلهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها، وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوّف والتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز ﴿يجبى إليه﴾ تجلب وتجمع قرئ بالياء والتاء، وقرئ تجنى بالنون من الجنى وتعديته بإلى كقوله: يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة. وثمرات بضمتين وبضمة وسكون، ومعنى الكلية الكثرة كقوله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾[2] ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ متعلق بقوله: ﴿من لدنا﴾ أي: قليل منهم يقرون بأنّ ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده.

فإن قُلْتَ: بم انتصب رزقًا! **قُلْتُ:** إن جعلته مصدرًا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله، لأنّ معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء ويرزق ثمرات كل شيء واحد أن يكون مفعولاً له وإن جعلته بمعنى: مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة، هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرغود في ظلال الأمن، وخفض العيش فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر فدمّرهم الله وخرّب ديارهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾.

وانتصبت ﴿معيشتها﴾ إمّا بحذف الجار، وإيصال الفعل كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾[3] إمّا على الظرف بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم أو بتقدير حذف الزمان المضاف أصله بطرت أيام معيشتها كحقوق النجم ومقدم الحاج وإمّا بتضمين بطرت معنى كفرت وغمطت وقيل: البطر سوء احتمال الغنى، وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿إلاّ قليلاً﴾ من السكنى قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يومًا، أو ساعة يحتمل أنّ شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من

(1) قال الزيلعي غريب جدًا بهذا اللفظ، زيلعي 3/31.

(2) سورة النمل، الآية: 23.

(3) سورة الأعراف، الآية: 155.

سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ لتلك المساكن من ساكنيها أي: تركناها على حال لا يسكنها أحد وخرّبناها وسوّيناها بالأرض.

تتخلف الآثار عن أصحابها حينًا ويدركها الفناء فتتبع

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾.

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حتى يبعث في﴾ القرية التي هي أمّها أي: أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها ﴿رسولاً﴾ لإلزام الحجة، وقطع المعذرة مع علمه أنهم لا يؤمنون أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني: مكة رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وقرئ: ﴿أمها﴾ بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجرّ وهذا بيان لعدله وتقدّسه عن الظلم حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة، والإلزام ببعثه الرسل[1] ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين كما قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[2] فنصّ في قوله: ﴿بظلم﴾ أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلمًا منه وأنّ حاله في غناه وحكمته منافية للظلم دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾.

وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أيامًا قلائل وهي مدّة الحياة المتقضية ﴿وما عند الله﴾ وهو ثوابه ﴿خير﴾ في نفسه من ذلك ﴿وأبقى﴾ لأنّ بقاءه دائم سرمد. وقرئ: يعقلون بالياء وهو أبلغ في الموعظة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين والكافر.

أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾.

يتمتع هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها والوعد الحسن الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم، والاستحقاق وأي شيء أحسن منها ولذلك سمى الله الجنة بالحسنى و﴿لاقيه﴾ كقوله تعالى: ﴿ولقّاهم نضرة وسرورًا﴾ وعكسه، فسوف يلقون غيًا ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا النار ونحوه لكنت من المحضرين فكذبوه فإنهم لمحضرون قيل: نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل وقيل: في علي وحمزة وأبي جهل وقيل: في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة.

فإن قُلْتَ: فسر لي الفاءين وثم واخبرني عن مواقعها! **قُلْتُ:** قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله، وتفاوتها ثم عقبه بقوله: ﴿أفمن وعدناه﴾ على معنى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوّى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها وأمّا الثانية فللتسبيب لأنّ لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير، وأمّا، ثم فلتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع لا لتراخي وقته عن وقته. وقرئ: ثم هو بسكون الهاء كما قيل: عضد في عضد تشبيهًا للمنفصل بالمتصل، وسكون الهاء في فهو وهو ولهو أحسن لأنّ الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالمتصل.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿شركائي﴾ مبني على زعمهم وفيه تهكم.

فإن قُلْتَ: زعم يطلب مفعولين كقوله: ولم أزعمك عن ذاك معزلاً، فأين عما؟ **قُلْتُ:** محذوفان تقديره الذين كنتم تزعمونهم شركائي ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿الذين حق عليهم القول﴾ الشياطين أو أئمة الكفر ورؤوسه ومعنى ﴿حق عليهم القول﴾: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: ﴿لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[3] و﴿هؤلاء﴾ مبتدأ و﴿والذين أغوينا﴾ صفته والراجع إلى الموصول محذوف و﴿أغويناهم﴾ الخبر، والكاف صفة مصدر محذوف تقديره ﴿أغويناهم﴾ فغووا غيًا مثل ما غوينا يعنون أنا لم نغوا إلا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء أودعونا إلى الغي وسوّلوه لنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأنّ إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسرًا وإلجاء فلا فرق إذًا بين غينا وغيهم وإن كان تسويلنا داعيًا لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفًا عن الكفر وداعيًا إلى الإيمان، وهذا

---

(1) قال أحمد: هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال، وارد على القدرية لا جواب لهم عنه ينشأ السؤال في هذه الآية، فيقال: لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف لقامت الحجة على الناس، وإن لم يكن بعث رسل إذ العقل حاكم، فلا = يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلاً.

(2) سورة هود، الآية: 117.

(3) سورة هود، الآية: 119.

معنى ما حكاه الله عن الشيطان إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم والله تعالى قدّم هذا المعنى أوّل شيء حيث قال لإبليس: إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم هوى منهم للباطل ومقتًا للحق لا بقوّة منا على استكراههم ولا سلطان ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾، إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى.

وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب أو لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه أو تمنوا لو كانوا مهتدين، أو تحيروا عند رؤيته وسدروا فلا يهتدون طريقًا حكى أوّلاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين: أو ائمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها، ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿فعميت عليهم الأنباء﴾ فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعًا لا تهتدي إليهم ﴿فهم لا يتساءلون﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا كما يتساءل الناس في المشكلات؛ لأنهم يتساوون جميعًا في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب، وقرئ فعميت والمراد بالنبأ الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوّضون الأمر إلى علم الله وذلك قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ فيقول: ماذا أجبتم قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب فما ظنك بالضلال من أممهم.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿فأما من تاب﴾ من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فعسى أن﴾ يفلح عند الله وعسى من الكرام تحقيق ويجوز أن يراد ترجي التائب وطمعه كأنه قال: فليطمع أن يفلح.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾.

الخيرة من التخير كالطيرة من التطير تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ بيان لقوله: ﴿ويختار﴾ لأنّ معناه ويختار ما يشاء ولهذا لم يدخل العاطف والمعنى أن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه قيل: السبب فيه قول الوليد بن المغيرة: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعني: لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم وقيل: معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة أي: يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم من قولهم في الأمرين ليس فيهما خيرة لمختار.

فإن قُلْتَ: فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة! **قُلْتُ:** أصل الكلام ما كان لهم فيه الخيرة فحذف فيه كما حذف منه في قوله: ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾[1] لأنه مفهوم ﴿سبحان الله﴾ أي: الله بريء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار.

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿ما تكنّ صدورهم﴾ من عداوة رسول الله وحسده ﴿وما يعلنون﴾ من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوّة.

وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿وهو الله﴾ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها و ﴿لا إله إلا هو﴾ تقرير لذلك كقولك: الكعبة القبلة لا قبلة إلا هي.

فإن قُلْتَ: الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة؟ **قُلْتُ:** هو قولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وقيل: الحمد لله ربّ العالمين والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة وفي الحديث يلهمون التسبيح والتقديس[2] ﴿وله الحكم﴾ القضاء بين عباده.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾.

﴿أرأيتم﴾ وقرئ: ﴿أريتم﴾ بحذف الهمزة وليس بحذف قياسي ومعناه أخبروني من يقدر على هذا. والسرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد والميم مزيدة ووزنه فعمل ونظيره دلامص من الدلاص.

---

(1) سورة الشورى، الآية: 43.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: في صفات = = الجنة وأهلها، وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا (الحديث رقم: 18 ـ 2835).

فإن قُلْتَ: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه كما قيل: بليل تسكنون فيه! **قُلْتُ:** ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تنعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثمة قرن بالضياء **﴿افلا تسمعون﴾** لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿افلا تبصرون﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره وأنت من السكون ونحوه.

وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿ومن رحمته﴾ زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾.

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك فأدخلنا في الناجين من وعيدك

وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿ونزعنا﴾ وأخرجنا **﴿من كل امة شهيدًا﴾** وهو نبيهم لأنّ أنبياء الأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه **﴿فقلنا﴾** للأمة **﴿هاتوا برهانكم﴾** فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول **﴿فعلموا﴾** حينئذٍ **﴿أن الحق لله﴾** ولرسوله لا لهم ولشياطينهم **﴿وضلّ عنهم﴾** وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع **﴿ما كانوا يفترون﴾** من الكذب والباطل.

۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿قارون﴾ اسم أعجمي مثل هارون ولم ينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولاً من قرن لانصرف، وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به وقيل: كان إسرائيليًا ابن عم موسى هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وقيل: كان موسى بن أخيه، وكان يسمى: المنور لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري، وقال: إذا كانت النبوة لموسى عليه السلام والمذبح والقربان إلى هارون فما لي وروي أنه لما جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرب القربان ويكون رأسًا فيهم وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه وجد قارون في نفسه، وحسدهما فقال لموسى: الأمر لكما ولست على شيء إلى متى أصبر قال موسى هذا صنع الله قال: والله لا أصدقك حتى تأتي بآية، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فاصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر **﴿فبغى عليهم﴾** من البغي وهو الظلم قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم وقيل: من البغي وهو الكبر والبذخ تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده وقيل: زاد عليهم في الثياب شبرًا. المفاتح جمع مفتح بالكسر، وهو ما يفتح به وقيل: هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بالفتح ويقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها واعصوصبوا اجتمعوا وقيل: كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود قال: أبو رزين يكفي الكرفة مفتاح وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ الكنوز والمفاتح والنوء والعصبة وأولى القوة وقرأ بديل بن ميسرة لينوء بالياء ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال كقولك: ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء **﴿لا تفرح﴾** كقوله: **﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾**[1] وقول القائل:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح وما أحسن ما قال القائل:

أشدّ الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿وابتغ فيما آتاك الله﴾ من الغنى والثروة **﴿الدار الآخرة﴾** بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه وتجعله زادك إلى الآخرة **﴿ولا تنس نصيبك﴾** وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك **﴿وأحسن﴾** إلى عباد الله **﴿كما أحسن الله إليك﴾** أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك، والفساد في

(1) سورة الحديد، الآية: 23.

الأرض ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل: إن القائل موسى عليه السلام.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾.

وقرئ واتبع ﴿على علم﴾ أي: على استحقاق واستيجاب لما في من العلم الذي فضلت به الناس ونلك أنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة وقيل: هو علم الكيمياء عن سعيد بن المسيب كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء، فأفاد يوشع بن نون ثلثه وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبًا وقيل: علم الله موسى علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون وقيل: هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل: ﴿عندي﴾ معناه في ظني كما تقول: الأمر عندي كذا كأنه قال: إنما أوتيته على علم كقوله تعالى: ﴿ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾[1] ثم زاد عندي أي: هو في ظني ورأيي هكذا، ويجوز أن يكون اثباتًا لعلمه بأنّ الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل: ﴿أوَلم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله، وقوّته ويجوز أن يكون نفيًا لعلمه بنلك لأنه لما قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ فتنفج بالعلم وتعظم به قيل: أعنده مثل نلك العلم الذي ادعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿واكثر جمعًا﴾ للمال أو أكثر جماعة وعددًا.

فإن قُلْتَ: ما وجه اتصال قوله: ﴿ولا يسال عن ننوبهم المجرمون﴾ بما قبله! **قُلْتُ:** لما نكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأغنى قال: على سبيل التهديد له والله مطلع على ذنوب المجرمين لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم وهو قادر على أن يعاقبهم عليها كقوله تعالى: ﴿والله خبير بما تعملون﴾[2] ﴿والله بما تعملون عليم﴾[3] وما أشبه نلك.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾.

﴿في زينته﴾ قال: الحسن في الحمرة والصفرة وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام، وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل: في تسعين ألفًا عليهم المعصفرات وهو أوّل يوم رؤى فيه المعصفر، كان المتمنون قومًا مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر، وعن قتادة تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبل الخير وقيل: كانوا قومًا كفارًا. الغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾، ومن الحسد قوله: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ وقيل لرسول الله ﷺ: هل يضر الغبط فقال: لا إلا كما يضر العضاه الخبط[4]، والحظ الجد وهو البخت والدولة وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت يقال: فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ وما الدنيا إلا أحاظ وجدود.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾.

ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى كما استعمل لا أبا لك وأصله الدعاء على الرجل بالأفراف في الحث على الفعل، والراجع في ﴿ولا يلقاها﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للثواب؛ لأنه في معنى المثوبة أو الجنة أو للسيرة والطريقة وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿الصابرون﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير، كان قارون يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى أرادكم على كل شيء وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئت قال: نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار وقيل: طستا من ذهب وقيل: طستا من ذهب مملوءة ذهبًا وقيل: حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه، فقال قارون وإن كنت أنت قال: وإن كنت أنا قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت فناشدها موسى بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقنفك لنفسي فخرّ موسى ساجدًا

(1) سورة الزمر، الآية: 49.
(2) سورة آل عمران، الآية: 153.
(3) سورة النور، الآية: 28.
(4) رواه الطبراني في معجمه، زيلعي 3/32.

يبكي وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت، فإنها مطيعة لك فقال: يا بني إسرائيل إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعًا غير رجلين ثم قال: يا أرض خذ بهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال: خذ بهم، فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدّة غضبه، ثم قال: خذيهم فانطبقت عليهم وأوحى الله إلى موسى ما أفظك استغاثوا بك مرارًا فلم ترحمهم، أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريبًا مجيبًا[1].

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾.

فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿من المنتصرين﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام أو من الممتنعين من عذاب الله يقال: نصره من عدوه، فانتصر أي: منعه منه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾.

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿مكانه﴾ منزلته من الدنيا ﴿وي﴾ مفصولة عن كان وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون وتندموا ثم قالوا: ﴿كأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه قال: وي كأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وحكى الفراء أنّ أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك فقال: وي كأنه وراء البيت وعند الكوفيين أنّ ويك بمعنى ويلك وأنّ المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون، ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي كقوله: ويك عنتر أقدم وأنه بمعنى لأنه واللام لبيان المقول لأجله هذا القول: أو لأنه ﴿لا يفلح الكافرون﴾ كان ذلك، وهو الخسف بقارون ومن الناس من يقف على وي ويبتدئ كأنه ومنهم من يقف على ويك، وقرأ الأعمش لولا من الله علينا وقرئ ﴿لخسف بنا﴾ وفيه ضمير الله ولا تخسف بنا كقولك: انقطع بنا كقولك: انقطع به ولتخسف بنا.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿تلك﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون، وعن علي رضي الله عنه: أنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها[2] وعن الفضيل أنه قرأها، ثم قال: ذهبت الأماني هنا وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّدها حتى قبض ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقًا بقوله: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾[3] ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾[4] ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ كما تدبره عليّ والفضيل وعمر[5].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾.

معناه فلا يجزون فوضع ﴿الذين عملوا السيئات﴾ موضع الضمير، لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرر أفضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة وهو معنى قوله: ﴿فله خير منها﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾.

﴿فرض عليك القرآن﴾ أوجب عليك تلاوته، وتبليغه والعمل بما فيه يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف

---

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره، زيلعي 3/33. أخرجه الحاكم في المستدرك 2/408.

(2) حديث أنس أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6565) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة، (الحديث رقم: 322 ـ 193)، وحديث أبو هريرة أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ (الحديث رقم: 3340)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة (الحديث رقم: 327. 194).

(3) سورة القصص، الآية: 4.

(4) سورة القصص، الآية: 77.

(5) قال أحمد: هو تعرض لغمص أهل السنة، فإن كل موحد من أهل الجنة، وإنما طمعوا حيث أطمعهم الله تعالى، بل حقق طمعهم في رحمته، حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنا، وإن سرق ثلاثاً، وفي الثالثة وإن رغم أنف أبي ذر» اللهم اقسم لنا من رجاء رحمتك ما تعصمنا به من القنوط، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، والله الموفق للصواب.

لمثيبك عليها ثوابًا لا يحيط به الوصف و ﴿لرادك﴾ بعد الموت ﴿إلى معاد﴾ أي: معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك وقيل: المراد به مكة ووجهه أن يراد رده يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك يوم معادًا له شأن ومرجعًا له اعتداد لغلبة رسول الله ﷺ عليها، وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه والسورة مكية فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهرًا ظافرًا وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم فنزل جبريل فقال له: أتشتاق إلى مكة قال: نعم فأوحاها إليه.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم﴾ بما قبله! **قُلْتُ:** لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال: قل للمشركين ربي أعلم من جاء بالهدى يعني: نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾.

فإن قُلْتَ: قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ ماجاء الاستثناء فيه **قُلْتُ:** هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك ويجوز أن يكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾.

وقرئ ﴿يصدنك﴾ من أصدّه بمعنى صدّه وهي في لغة كلب وقال:

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهمو ... صدود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ بعد وقت إنزاله وإذ تضاف إليه أسماء الزمان كقولك: حينئذٍ وليلتئذٍ ويومئذٍ وما أشبه ذلك.

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾.

والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سبق نكره ﴿إلا وجهه﴾ إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات. قال رسول الله ﷺ: من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى، وكذب به ولم يبق ملك في السمٰوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقًا إن كل شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة العنكبوت مكية

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل ألا ترى أنك لو قلت حسبت زيدًا وظننت الفرس لم يكن شيئًا حتى تقول: حسبت زيدًا عالمًا، وظننت الفرس جوادًا لأنّ قولك: زيد عالم أو الفرس جواد كلام دال على مضمون فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتًا عندك على وجه الظنّ لا اليقين، فلم تجد بدًا في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه من ذكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك.

فإن قُلْتَ: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية! **قُلْتُ:** هو في قوله: ﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم آمنا هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقوله، فتركته جزر السباع ينشنه. ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام.

فإن قُلْتَ: أن يقولوا هو علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ **قُلْتُ:** كما تقول: خروجه لمخافة الشر وضربه للتأديب وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تأديبًا تعليلين وتقول أيضًا: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأديب فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبرًا.

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾.

والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم والمعنى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يمنحهم الله بضروب المحن حتى يبلوا صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوع نياتهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والمتمكن من العابد على حرف كما قال: ﴿لتبلون في

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/36.